

المقاومة الجزائرية في كتابات الآخرين ألان سفاري Alain Savary والثورة الجزائرية نموذجا

أ.د/عبد الكريم الماجري

جامعة منوبة - تونس

المقدمة:

بما ان الثورة الجزائرية أضحت نموذجا في التضحية والبسالة، نريدها، نحن الباحثون العرب، ان تكون نموذجا في البحث العلمي. فلا لوم على بعض الباحثين الأوائل الذين عاصروا هذه الثورة وعاشوا جرائم القتل والتنكيل والإبادة الجماعية والتشريد، فغلب على إنتاجهم الفكري الحماس، وعمموا ولم ينسبوا، وحشروا أعداء الثورة في سلة واحدة مع مناصريها.

وقد آن الا وان، بعد ستين سنة من اندلاع الثورة، وأكثر من خمسين سنة على استقلال الجزائر، لان تكون قراءتنا للثورة قراءة رصينة قوامها المنهج العلمي والمقاربة الموضوعية حتي نتمكن من فهم أسبابها العميقة والمباشرة وتطور أحداثها، وخصوصياتها، وتداعياتها المحلية والإقليمية والدولية، وإنصاف أصدقائها، سواء كانوا فرنسيين أو عربا أو غيرهم، يمينيين¹ أو يساريين²، وتحديد من كان عدوا لها ومناصراً للاستعمار دون أن نصدر أحكاماً قيمة لا تفيد البحث العلمي في شيء.

1- أمثال "رمون آرون" Raymond Aron راجع، د. حسين رئيس، "الفيلسوف الفرنسي رمون آرون والثورة الجزائرية من خلال كتابه الاستقلال للجزائر"، الموروث، العدد الثاني ماي 1913، ضمن 149-160.

2- أمثال فرانز فانون Franz Fanon وفرانسي جونسون Francis Jeanson وهنري آلاق Henri Alleg وغيرهم، راجع د. ولد العروسي، "المناضل الفرنسي هنري علاق Henri Alleg وثورة التحرير الجزائرية، الموروث، نفس المرجع، ص 139-148.

وفي هذا الإطار سأعرض إلى موقف إحدى الشخصيات الفرنسية من الثورة الجزائرية وهي شخصية معقدة من حيث النشأة والانتماء الإيديولوجي والمسار السياسي ونعني بذلك ألان سفاري **Alain Savary** صاحب كتاب "الوطنية الجزائرية وعظمة فرنسا" " **Nationalisme Algérien et Grandeur Française** ¹» فمن يكون ألان سفاري؟ وكيف قارب الثورة الجزائرية؟ وماهي الحلول المقترحة لحل الأزمة وإنهاء الحرب الجزائرية؟

1) ألان سفاري وكتابه "الوطنية الجزائرية وعظمة فرنسا"

اعتقاداً منا أنه لا يمكن لمؤلف أن يكتب عن مسألة ما دون أن يتأثر بموقعه من الأحداث التي تطرق لها بالبحث ومن الظرفية التاريخية التي دون فيها دراسته وكذلك من مرجعيته الإيديولوجية، آلبنا على أنفسنا الاقتصار على ذكر أبرز مكونات الشخصية القاعدية لمؤلفنا، علنا نعي ونفهم مقارنته للثورة الجزائرية من خلال كتابه " الوطنية الجزائرية وعظمة فرنسا" الذي انتهى من كتابته أواخر 1959 ونشره سنة 1960 وحرب الجزائر مازالت متواصلة.

فالمؤلف فرنسي الأصل، ولد بمدينة الجزائر سنة 1918، وأنهى دراسته بتفوق سنة 1938، وأنظم إلى صفوف مقاومة القوات النازية ضمن كتيبة المشاة البحرية، ولعله أدرك في تلك المرحلة من حياته معنى الاحتلال وكنه المقاومة.

عين حاكماً على منطقة SAINT Pierre et Maquelon (1941-1943)، ثم عضواً في المجلس الاستشاري المؤقت، وانتخب سنة 1951 نائبا بالبرلمان الفرنسي، ثم عين سنة 1956 كاتب دولة للشؤون الخارجية مكلف بمسألة المغرب الأقصى وتونس، مما مكّنه من الاطلاع على خفايا الاستقلال السياسي للبلدين، إلا أنه استقال من هذا المنصب احتجاجاً على اختطاف الطائرة التي كانت تقل بن بلة ورفاقه². فقد آثر الاستقالة من حكومة قي مولي **Guy Mollet**، رافضاً تدخل الجيش وتسلبه على هيئة الدولة الفرنسية، ودفاعاً عما يؤمن به من حقوق الإنسان ومن قيم إنسانية اكتسبها من الإيديولوجية الاشتراكية ومن انتمائه للحزب الاشتراكي الفرنسي الذي استقال منه كذلك ليؤسس فيما بعد الحزب الاشتراكي المستقل. وقد عزم سنة 1958 على تقديم ترشحه ضمن قائمة فرنسية

1-Nationalisme Algérien et Grandeur Française, plon, Paris, 1960.

2-تم اختطاف الطائرة التي كانت تقل بن بلة ورفاقه من المغرب الأقصى إلى تونس سنة 1956 للمشاركة في مؤتمر السلم بموافقة فرنسا.

إسلامية للانتخابات بالجزائر، تدعو إلى الاعتراف بحق الجزائريين في تقرير المصير، إلا أنه أثر العودة إلى فرنسا وعدم المشاركة في هذه الانتخابات لما يعلمه من عادة تزييف نتائجها، علما بأن "ألان سفاري" قد انظم من جديد إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي وتولّى وزارة التربية سنة 1981-1984 في عهد الرئيس ميتران و توفي بباريس سنة 1988.

بالنسبة لكتابه **Nationalisme Algérien et Grandeur Française** نشير أي ان ألان سفاري قد شرع في تدوينه أثر وصول شارل ديغول للحكم سنة 1958 والذي تبني موقفا جديدا من القضية الجزائرية تجسم في تصريح 16 سبتمبر 1959 حيث اعترف فيه لأول مرة بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه حتى ولو أدى ذلك إلى انفصال الجزائر عن فرنسا¹. ومن جهة أخرى فقد تزامن تأليف هذا الكتاب مع ظهور عدة أصوات يسارية وحتى يمينية تدعو إلى التخلي عن فكرة "الجزائر مقاطعة فرنسية"².

ولا شك أن هذه التطورات في الفكر السياسي الفرنسي قد قادت المؤلف إلى اقتراح حلول جديدة للقضية الجزائرية تضمن للجزائريين حقهم في تقرير المصير وتحافظ على عظمة فرنسا. قسم المؤلف كتابه إلى أربعة محاور:

1. أسس القضية الجزائرية ومعطياتها، حلل في هذا المحور الأسباب العميقة لاندلاع الثورة والعوامل الجديدة التي ظهرت أثر غرة نوفمبر 1954 والمتمثلة في دور الجيش واكتشاف البترول بالجزائر.
2. الصعوبات القائمة أمام الاندماج وأخطاره.
3. خصص القسم الثالث لضرورة الاعتراف بحق المصير.
4. وفي المحور الرابع تناول بالدرس ما اقترحه من حل للقضية الجزائرية واضعا الخطوط الرئيسية له مع إبراز عظمة فرنسا.

سوف لن نتعرض لكل المحاور وإنما سنركز أساسا على رؤية ألان سفاري الاشتراكي السياسي الفرنسي للثورة الجزائرية.

1-وعد دوغول بإجراء استفتاء حول مستقبل الجزائريين الذين سيخبرون بين أمور ثلاثة... الانفصال واختيار نوع الحكومة التي يريدونها أو الإدماج أو الفدرالية. أنظر د. يحي بوعزيز ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، ثورات القرن العشرين، الطبعة الثانية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996، ص. 284-286.

2-يكني الرجوع إلى المقالات التي نشرت بمجلة **Esprit** والداعية إلى حق الجزائريين في الاستقلال.

2- حيرة آلان سفاري بين ايجابية الاستعمار الفرنسي واندلاع ثورة نوفمبر 1954:

في البداية نشير إلى أن الاشتراكيين الفرنسيين وفي مقدمتهم جون جوراس Jean Jaures قد عارضوا الاستعمار الرأسمالي المتوحش ونددوا باستعمال القوة وتقتيل الشعوب "المتخلفة"، إلا أنهم لم يعترضوا على ما أسموه بالاستعمار السلمي، اعتقادا منهم بأن الشعوب المستعمرة (بفتح الميم)، تستفيد من الحضارة الغربية التي هي، حسب منظورهم، أرقى من الحضارات الأخرى. ولقد برز هذا الموقف بجلاء عندما شرعت فرنسا في احتلال المغرب الأقصى سنتي 1907-1908¹.

وانطلاقا من هذه المرجعية الايديولوجية، اعتبر آلان سفاري، الاشتراكي المذهب والمنتمي للحزب الاشتراكي الفرنسي، بأن الاستعمار الفرنسي للجزائر كان ايجابيا². ورغم انه، مثل المارشال le Marechal Bugeaud، يعتقد بأن احتلال الجزائر كان خطأ تاريخيا³، فانه لا يلوم فرنسا على خوضها غمار التوسع الاستعماري الذي تم في سياق تاريخي منسجم تماما الانسجام مع ما عرفه القرن التاسع عشر من تحولات اقتصادية وحركة استعمارية. وهو لا يلوم فرنسا كذلك على احتلال الجزائر نظرا لما حصل من تطور للجزائريين حيث تم القضاء على الأوبئة والجذام، وتفكيك الهياكل التقليدية. كما ارتفعت نسبة التحضر، أثر نزوح السكان من الأرياف إلى المدن، فلامس الجزائريون الحضارة الفرنسية ومزاياها. ومن الايجابيات الأخرى التي كثيرا ما ركز عليها آلان سفاري، تكون فئة اجتماعية مثقفة من الجزائريين المسلمين و"متفرنسة" عبرت عن رغبتها في الاستفادة والتمتع بمبادئ وقيم الحضارة الفرنسية⁴. ومما أثار دهشة واستغراب آلان سفاري، ما شهدته الجزائر من أحداث دامية بداية من غرة نوفمبر 1954، فتساءل عن هذه المفارقة بين ايجابيات الاستعمار الفرنسي للجزائر

1-لمزيد التعرف على موقف الاشتراكيين الفرنسية، انظر:

MEJRI ABDELKRIM, les socialistes français et la question marocaine (1903-1912); L'Harmattan. 2004.

2-Savary (Alain), Nationalisme, op.cit. avant propos.

3-صرح المارشال بوجو، في خطاب أمام البرلمان الفرنسي بتاريخ 15 جانفي 1840، بما يلي:

'oui, à mon avis, la possession de l'Algérie est une faute, mais puisque voulez vous la faire, puisque il est impossible que vous ne la fassiez pas, il faut que vous la fassiez grandement, car c'est le seul moyen d'en obtenir quelque fruit....'

وفي خطاب آخر بتاريخ 22 فيفري 1841 صرح المارشال بوجو بأنه لم يكن قادراً على إيقاف عملية الاحتلال: 'ma voix, n'était assez puissante pour arrêter un élan qui est peut-être l'ouvrage du destin, le pays s'est engagé je dois le suivre....' Cité par Alain Savary, Nationalisme, op.cit. p.117.

4-Ibidem, pp.50-51.

وردود فعل الجزائريين. وانطلاقاً من هذه المساءلة المنهجية، شرع في البحث عن الدوافع والعوامل الأساسية "للثورة الجزائرية".

وقبل استعراض قراءة آلان سفاري للعوامل المفسرة للأحداث التي عاشتها الجزائر مدة خمس سنوات منذ انطلاقتها إلى حدود تأليف كتابه سنة 1959، نشير إلى غياب كلمة ثورة *Révolution*. فلم يستعمل ولو مرة واحدة هذه الكلمة مفضلاً لكلمات أخرى مرادفة لها مثل الانتفاضة *Insurrection* أو تمرد *Révolte rébellion*. ولا نعلم ماهي الدوافع الذاتية والموضوعية التي جعلته يتجنب استعمال كلمة ثورة رغم اعتماده على كتاب لهتري فافرو *Favrod*. بعنوان الثورة الجزائرية¹ *la Révolution Algérienne*. وكما نعلم، فان كلمة ثورة تفيد التغيير الجذري للواقع المعاش والرجوع إلى نقطة البداية، معنى ذلك أن الجزائريين قد رغبوا من خلال تفجير ثورتهم، في الرجوع بالجزائر إلى وضعها القانوني الدولي لسنة 1830 أي الاستقلال عن فرنسا. ومهما يكن من أمر فإن آلان سفاري قد اجتهد لتحديد وتحليل كل المعطيات المفسرة لانطلاقة "حرب الجزائر" وفهم تلك المفارقة بين إيجابية الاستعمار الفرنسي ومحاولة استقلال الجزائريين.

فما هي المعطيات التي اعتبرها آلان سفاري محددة لانطلاقة الثورة الجزائرية؟ وما هي العوامل الفاعلة ما قبل اندلاع الثورة والأخرى التي جددت بعد غرة نوفمبر 1954 مما عقد أكثر القضية الجزائرية.

3- تناقضات المسلمين والمستوطنين الأوروبيين:

لقد اعتبر آلان سفاري، عدم التوازن الديمغرافي بين المسلمين والأوروبيين دافعاً أساسياً لانطلاقة الأحداث نظراً للتناقضات العديدة بين المجموعتين في مجالات عديدة. فبالرغم من أن نسبة الأوروبيين لا تمثل سوى 17/2 من إجمال السكان، باعتبار أن عددهم لا يتجاوز مليون نسمة مقابل أكثر من ثمانية ملايين مسلماً، فإن الأوروبيين يستأثرون بأغلب الأراضي الصالحة للزراعة وأخصبها، فهناك مثلاً 17.200 معمرًا يستحوذون على قرابة ثلاثة ملايين هكتاراً تقع أغلبها بالمنطقة التلية²، بينما لا يملك الجزائريون

1- تعرض الدكتور يحي بو عزيز لمؤلفات هنري فافرو Henri Favrod ضمن الفصل الذي خصصه لما كتب عن ثورة أول نوفمبر 1954، راجع، ثورات الجزائر... المرجع السابق، ص. 428.

2- إحصائيات 31 أكتوبر 1954 أي عشية الثورة الجزائرية.

إلا أراضي فقيرة مع علمهم بأن أراضي أجدادهم قد افتكت عنوة¹.

وعلاوة على تميز أراضي المعمرين الأوربيين فإن هؤلاء قد تحصلوا على امتيازات مالية وتقنية أدت إلى تفاوت كبير في الإنتاج والإنتاجية بين أراضي المعمرين الأوربيين وأراضي المسلمين. وإضافة إلى هذا التفوق المادي، تمتع الأوربيون بامتيازات كثيرة في مجال التعليم، بينما حرم المسلمون من تعليم أبناءهم. وأفضل مثال على ذلك بقاء أكثر من مليون ونصف (1.683.000) من الأطفال في سن التمدرس سنة (1954/1955)، بعيدين عن مقاعد الدروس². وتبعاً لقلّة المتعلمين من المسلمين فقد بقيت الوظائف العمومية حكراً على الأوربيين³.

لقد اعتبر آلان سفاري أن طبيعة الاستعمار الفرنسي للجزائر وهو استعمار توطيني هو الذي يفسر حصول المستوطنين الأوربيين على كل هذه الامتيازات إذ حرصت السلطات الاستعمارية على توطين أكبر عدد ممكن من الفرنسيين وإيهامهم بكونهم يؤدون رسالة وطنية⁴. وقد أدت هذه السياسة التوطينية إلى ظهور طبقة من المعمرين يعتقدون بأنهم مكلفون بواجب وطني يتمثل في المحافظة على الجزائر كمقاطعة فرنسية. بينما أثرت هذه السياسة سلباً على الجزائريين إذ أنهم يعانون من صدمة نفسية تسببت فيها سياسة افتكاك الأراضي وتوزيعها على المعمرين. ولقد أدت كل هذه المعطيات إلى تصدع العلاقات وتوترها بين المسلمين والمستوطنين الأوربيين⁵ وهي بذلك تمثل إحدى العوامل المفسرة لأحداث 1 نوفمبر 1954.

1-Savary (Alain), Nationalisme, op.cit, p.30.

بالإضافة إلى التقارير الرسمية، فقد اعتمد آلان سفاري على الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالاستحواذ العقاري مثل أطروحة كلفلي:

CAL VELLI, état de la propriété rurale en Algérie, thèse de droit, Alger 1905.

2-« Vivant ici et là au contact de la colonisation, elles savent par tradition orale que telles terres ont appartenu à leurs tribus ou à leurs familles qu'ici et là des soulèvements parfois sanglants ont eu lieu pour conserver les terres'. Ibidem. P.36. ».

ومن ناحية أخرى استشهد آلان سفاري باعتزازات المرشالوجو حول افتكاك الأراضي من طرف السلطات الاستعمارية بطرق مختلفة:

« nous ne pouvons faire la colonisation européenne qu'on spoliant les Arabes quand ils sont propriétaires du territoire de la tribu, ou en les resserrant quand ils n'ont d'autres titres que ceux de la longue jouissance, les resserrer équivaut à la spoliation ». Ibidem. P.34.

3-Ibidem, pp. 14-16.

استقى آلان سفاري هذه المعلومات من تقرير رمحي:

Rapport de la commission su plan d'équipement scolaire concernant l'Algérie'.

4-Ibidem, p19.

5-لتحقيق مخطئها في الاستيطان أعدت السلطات الاستعمارية على المستوطنين عدة امتيازات وسنت ترسانة من القوانين لتمكينهم من الأراضي.

Ibidem, p25.

فما هي الدوافع الأخرى التي ساهمت في اندلاع الثورة الجزائرية؟

4- تصدي المستوطنين لكل مشروع إصلاحى لفائدة المسلمين؟

أصبح المستوطنون الأوروبيون، نتيجة للامتيازات التي تحصلوا عليها، يمثلون قوة ضغط على الحكومة المركزية بواسطة نوابهم وصحفهم ورؤوس أموالهم. ومن ناحية أخرى سعوا للمحافظة على الوضع الراهن وحرمان الأهالي من كل إجراء لصالحهم رغم تحمل المسلمين ثقل حجم الأداءات¹. وفي هذا الإطار يقول يحي بوعزيز "فقد كان لهم نفوذ كبير على أعضاء مجلس البرلمان والشيوخ ورجال الأحزاب والهيئات والمنظمات السياسية ونتيجة لذلك عجزت السياسة الفرنسيون بمختلف اتجاهاتهم على إيجاد حل للمشكلة².

وبما أن المستوطنين الأوروبيين يعتقدون أن أي تطور للمسلمين قد يهدد مصالحهم ويطرح مسألة امتيازاتهم، تمسكوا بالمحافظة على الوضع الراهن للجزائريين ورفضوا كلهم، مهما كانت انتماءاتهم الطبقية، المساواة مع المسلمين الجزائريين، فتجاوزوا تناقضاتهم الداخلية واتحدوا ضد المسلمين، ورفضوا كل قرار سياسي أو إداري يمكن المسلمين من تحسين وضعيتهم مثل مشروع القانون الذي يخول للمسلمين الحصول على صفة مواطن فرنسي (1887-1890) ومشروع نشر التعليم بين الأهالي بالجزائر (1894)، كما رفضوا قرض بمائة مليون فرنك بفائدة ضئيلة "1%" لأنه خصص للنهوض الاجتماعي بالمسلمين (1930). وذكر آلان سفاري بالاستقالة الجماعية لمشايخ المدن والنواب الفرنسيين احتجاجاً على مشروع بلوم- فيولات Blum-violette القاضي بإسناد صفة المواطن لقدماء الحاربيين والموظفين السامين من الجزائريين ولم تتمكن لجنة التحرير إلا من فرض مرسوم 7 مارس 1944 الذي نص على بعض القرارات الصالحة للجزائريين³.

إن تشبث المستوطنين الأوروبيين بامتيازاتهم ورفضهم لكل إصلاح لفائدة الجزائريين والعداء الذي يكونونه للجزائريين قد برز للعيان في مأساة أحداث 8 ماي 1945. وقد أثر آلان سفاري الاعتماد على ما جاء في دراسة فافرو Favrod فنقل منها فقررة تلخص هذه الحادثة لإبراز رفض الأوروبيين لأي حركة سياسية للجزائريين حتى ولو كان رفع الراية الجزائرية

1-« Ibidem, p36. 'il s'agit là d'un traumatisme de la conscience populaire musulmane que le temps ne parait pas effacer qui constitue une grave cause de troubles dans les rapports politiques entre les collectivités musulmane et française. »

2-بوعزيز (يحي)، ثورات الجزائر...، المرجع السابق، ص. 298.

3-Savary (A), Nationalisme, op.cit, pp. 46-48.

حيث ورد في هذه الدراسة ما يلي: "في اليوم الأول من ماي سنة 1945، وبمناسبة عيد الشغل، أصدر حزب الشعب الجزائري تعليمات إلى أعضائه، طالباً منهم رفع العلم الوطني الجزائري أثناء الاستعراضات، فقتل أحدهم بمدينة الجزائر (لهفات). وتعددت الاعتقالات في البلاد الجزائرية. وقد قرر حاكم قسنطينة لسترادكربونال **LestradeCarbonel** الذي تزعم قيادة المعمرين الغاضبين، دفع الشرطة إلى فرض النظام والأمن. وفي 8 ماي بينما كان مفتش الشرطة لافون **Laffont** خارجاً من مقهى فرنسا بسطيف، شاهد شاباً حاملاً لوحة كتب عليها "يجيا نصر الحلفاء" ففقد أعصابه وأطلق ثلاثة عيارات نارية في بطن الشاب. وانطلقت عيارات نارية الأخرى فسقط شاب اسمه بوزيد الذي كان حاملاً للراية الخضراء والبيضاء وأعلنت الأحكام العرفية. وساهمت مختلف الأطراف في تواصل الاقتتال حيث كانوا يصرخون "الجهاد الحرب المقدسة". وقتل عدد من الأوربيين من بينهم شيخ مدينة سطيف الاشتراكي دلوكا **Deluca** الذي كسب ثقة المسلمين وقام الجنرال دوفال **Duval** بحملة تمشيط رهيبية استخدمت فيها جنود الفرقة الأجنبية والرماة السينغاليون ووحدات المليشيا والأسرى الإيطاليون الذين تم إطلاق سراحهم للمشاركة في هذه العملية التي شاركت فيها وحدات الطيران والمدرعات. وقذفت الطرادة **Duguay-Trowin** جهة خراطة انطلاقاً من خليج بجاية ويواصل فافرود بالقول: "وفي 16 ماي بعد نهاية عمليات القمع، وصل لواء المشاة السابع إلى مدينة الجزائر بعد مشاركته في معارك الألزاس حيث فقد الثلث من عناصره".

وكانت الحصيلة الرسمية: أن عدد الضحايا الجزائريين ألف وخمسمائة (1500) وعدد القتلى من الأوربيين مائة وإثنان (102) أما اللجنة الثلاثية التي ترأسها الجنرال توبار **Tubert** ذكرت أن عدد قتلى الجزائريين 15000 بينما يقدر الوطنيون عدد الضحايا بخمس وأربعين ألف ضحية (45000).

إنه حادث نموذجي في دلالاته على حالة الفرنسيين العقلية والمعنوية في الجزائر، وقد شوهد فيه على رأس قطعات المليشيا الأوروبية الزاحفة ضد الجزائريين العزل، مستوطنون هم من المسؤولين الفرنسيين في الحزب الشيوعي الجزائري وقد يكون موقفهم هذا ناتجاً عن أن أمين سر فرع الحزب الشيوعي قطعت يده أثناء الاضطرابات بضرية بلطية. وخلاصة القول أن هذه

الحملة الإرهابية وبصورة خاصة في سطيف تركت آثاراً عميقة في نفوس الجماهير الجزائرية وذكرها لا تزال ماثلة إلى اليوم أمام أعينهم¹.

5- فشل مساعي المسلمين المطالبين بالإدماج وانعكاساته على تجدر الحركة الوطنية:

من العوامل الأخرى المفصلة لانطلاق ثورة غرة نوفمبر، ذكر آلان سفاري اصطدام الجزائريين أنصار الإدماج بتصلب المستوطنين الأوربيين ورفضهم لمطلب الإدماج الذي تبنته مجموعة من المثقفين الجزائريين. وهو مطلب لا يتجاوز تحقيق كرامة الإنسان والمساواة في الحقوق والواجبات، وحق كل جزائري أن يعامل كمواطن في أرضه وفي بلاده ومسقط رأسه. وقد كان الأمل يحدو بعض أفراد هذه الطبقة المثقفة في تحقيق الإدماج والاعتماد على أعضاء الحكومة المركزية ومجلس النواب والرأي العام الفرنسي.

ولئن وجدت مساعيهم مساندة من طرف بعض اليساريين وبعض الأحزاب الفرنسية، إلا أنها باءت بالفشل أمام تصلب المستوطنين والمتطرفين، وهكذا ضاعت، حسب آلان سفاري، فرصة تاريخية لو تم استغلالها لتجنب الجزائر هذه الأحداث الدامية.

وعدد آلان سفاري محاولات الاندماجين مثل جريدة الرشيدي التي نادى عبر أعمدها دعاة الإدماج منذ 1912 بحقهم في المواطنة كما أشار إلى الوفد الذي سافر إلى باريس للمطالبة بحذف "الأنديجانا" والتخفيف من سلطات الإداريين التأديبية وتوسيع دائرة التمثيل النيابي للجزائريين وفتح الخطط الوظيفية أمامهم، وتطوير التعليم. ورغم فشل المحاولات الأولى، فإن أنصار الإدماج واصلوا التشبث به مثل فرحات عباس الذي أكد أن مصير الجزائريين مرتبط بفرنسا خاصة حيث أنه كتب سنة 1936 ما يلي: "سألت التاريخ، سألت الأحياء والأموات وزرت المقابر، فلم يحدثني أحد عن الوطن الجزائري"².

ويرى آلان سفاري، أن هناك أحداث أخرى، إضافة إلى فشل مساعي الاندماجين، ساهمت في تجذر الحركة الوطنية، ذكر منها هزيمة فرنسا سنة 1940 وتحرير شمال أفريقيا من طرف الحلفاء، وفشل لجنة التحرير الفرنسية في فرض إصلاحات لفائدة الجزائريين وخاصة يقظة مشاعر الشعب الجزائري الوطنية تحت تأثير أحداث 8 ماي 1945.

1- Savary (A), Nationalisme, op.cit, pp. 46-48.

2-Ibidem, pp. 48-49.

وأشار آلان سفاري إلى ظهور حركتين سياسيتين قبيل الحرب العالمية الثانية واحدة إسلامية (بزعمامة عبد الحميد بن باديس¹ وأخرى وطنية (بزعمامة مصالي الحاج)². ونظراً لتعاطف الحكومة المركزية مع المستوطنين الأوروبيون. فإنها ساهمت بصفة غير مباشرة في تقارب الحركات السياسية الجزائرية ذات المشارب المختلفة. فعلى أثر مأساة 8 ماي 1945 وما تبعها من عمليات قمعية، ظهرت ثلاثة اتجاهات غير منسجمة ولا متنائة وهي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وحركة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وجمعية العلماء³. وإن كانت الحركة الأولى تطالب بالاستقلال فقد سعت الثانية للنهوض بالشعب الجزائري دون الانفصال عن فرنسا. أما جمعية العلماء فقد رغبت في تحقيق الوحدة الوطنية اعتماداً على الدين الإسلامي واللغة العربية⁴. وهكذا فقد ساهمت الأحداث في التفاف الجزائريين حول الحركة الوطنية⁵.

وحيال الموقف السليبي للحكومات المتعاقبة ونتيجة لليأس من إمكانية تخلص الحكومات الفرنسية من ضغط المستوطنين، تمكنت الأقلية من حزب أنصار الديمقراطية من إقناع أغلبية عناصر الحزب بروثتها الداعية للكفاح المسلح، خاصة بعد الإيقافات التعسفية للمركزيين، وحل هذا الحزب في 5 نوفمبر 1954⁶.

إن مسؤولية الساسة الفرنسيين في اندلاع الثورة الجزائرية وتواصلها وانضمام كل التشكيلات السياسية بما فيها الاتحاد الديمقراطي وجمعية العلماء، فقد عبر عنها بكل وضوح حاكم الجزائر جاك سوستال JAQUES SOUSTELLE في تقريره الذي أرسله، في غرة جوان 1955 إلى حكومة إدغارفور EDGAR FAURE أوضح فيه أسباب استياء جماهير الشعب الجزائري ونقمتها عن الأوضاع الجزائرية الاجتماعية المتردية واستياء النخبة الجزائرية من سياسة الحكومة الفرنسية ليخلص بالقول "إن التفاء واتحاد هذين التيارين شكلاً قوة مفجرة كبيرة"⁷.

1- Savary (A), Nationalisme, op.cit, pp. 51-52.

2-جمعية العلماء المسلمين.

3-حزب الشعب الجزائري.

4-Alain Savary, op.cit, p.53.

5-Ibidem, pp. 53-56.

6-Ibid.

7-Ibidem, p. 60.

وهكذا أراد آلان سفاري أن يدعم مقارنته للثورة بشهادة أحد الفاعلين السياسيين، أي حاكم الجزائر الذي حمل الحكومات الفرنسية مسؤولية اندلاع الثورة الجزائرية. ولهذا أكد آلان سفاري أن الجزائريين لم يحملوا السلاح بمحض إرادتهم وإنما أُجبروا على ذلك بعدما يتسوا من الحلول السلمية السياسية. ولقد أكد كذلك مسؤولية المستوطنين الأوروبيين في اندلاع الثورة الجزائرية، فأجبتوا كل محاولة لإصلاح وضعية الجزائريين الاقتصادية والاجتماعية رافضين مشاركتهم في الحياة السياسية خوفاً من المساس بمصالحهم وامتيازاتهم، معتقدين أن أي تطور للجزائريين ينعكس سلباً عليهم ويهدد تفوقهم. واشتد خوف المستوطنين الأوروبيين بعد غرة نوفمبر 1954 ونشر ذلك الإنذار المأثور "الحقيقية أو النعش" أي الرحيل أو الموت¹. فرفضوا خيار التفاوض، اعتقاداً منهم بأنه يؤدي حتماً إلى استقلال الجزائر مثل ما تم ذلك مع المغرب الأقصى وتونس، ولهذا أثروا الحرب على التفاوض.

6- ثورة غرة نوفمبر وظهور مؤثرين في القضية الجزائرية:

لقد اعتقد آلان سفاري أن الجيش قد زاد في تأصيل وتدعيم إستراتيجية المستوطنين الأوروبيين وأصبح يمثل بعد غرة نوفمبر 1954 عاملاً مؤثراً وفعالاً في القضية الجزائرية وكذلك في الشؤون الفرنسية المركزية. فقد اعتبر الجيش نفسه مكلفاً بمهام عويصة فقدم تضحيات جسيمة مقابل تقاعس السلطات المدنية الجزائرية وغموض قرارات الحكومة والبرلمان الفرنسي². وشعوراً منه بأنه تخلى عن الفيتناميين الذين وقفوا إلى جانب فرنسا فإنه غير مستعد للتخلي على الفرنسيين المقيمين بالجزائر ولذلك فقد تعهد بمواصلة الحرب³ ليشأ لمن مات منهم ويضحى من أجل شرفهم. كما كان الجيش يعتقد أن من واجبه مواصلة الحرب في الجزائر لا للدفاع عن مصالح وامتيازات المستوطنين وإنما لفائدة الصالح العام الفرنسي المتمثل في تواصل وجود فرنسا بالجزائر، وكذلك لفائدة المسلمين ومن ناحية أخرى بغرض دحر الشيوعية. ولقد عبر الجيش، مثل المستوطنين عن رفضه لسياسة التفاوض مع الجزائريين، لأن ذلك يؤدي حسب اعتقاد قادة الجيش، إلى خروج فرنسا من الجزائر⁴. ولكي تبقى الجزائر ضمن الممتلكات الفرنسية فلا بد من تطبيق سياسة الإدماج. ويرى آلان سفاري أن تدخل الجيش وفرض

1- Alain Savary, p. 61.

2-Ibidem, p. 63.

3-Ibidem, p. 65.

4-Ibidem, p. 66.

استراتيجيته قد أدى إلى استفحال الحرب الأهلية وتعدد مآسيها من تعذيب وإعدامات جماعية. وهماو أحد الضباط يصرح لآلان سفاري بأنه أصدر أمراً متواصلاً، يقتل كل الذين يجمعون الأموال لفائدة جبهة التحرير، قتلاً جماعياً لأن المال يمكن من شراء الأسلحة لقتل الأبرياء".

وقد لاحظ آلان سفاري أن مقابل هذا الإصرار من الجيش على مواصلة الحرب، هناك غياب موقف صارم من الحكومة والبرلمان الفرنسي. وقدم لنا مثلاً لإبراز ضعفهما، يتمثل في عدم معاقبة الجنرال FAURE الذي قام بمؤامرة سنة 1956 ولم يسجن سوى ثلاثين يوماً ثم أرسل كقائد إلى منطقة القبائل. ولا شك أن هذا الضعف قد شجع الجيش على عدم الانضباط وعدم الخضوع لأوامر السياسيين وقد ظهر ذلك بصفة جلية عندما اختطف الجيش الفرنسي الطائرة المقلدة لبن بلة ورفقائه، دون استشارة وزير الدفاع والخارجية وآلان سفاري، كاتب الدولة المكلف آنذاك بملفي المغرب الأقصى وتونس. ثم قام الجيش بتدمير ساقية سيدي يوسف على الحدود الجزائرية التونسية ولم يعاقب على هذين الحداث وهكذا أصبح الجيش يفعل ما يريد دون قيود، بل أصبح هو الذي يحدد الخطوط التي لا يمكن للدولة الفرنسية أن تتجاوزها، فأصبح بذلك عاملاً حاسماً في القضية الجزائرية¹.

إضافة إلى الجيش، ظهر بعد غرة نوفمبر 1954 عامل ثان جديد فاعل في القضية الجزائرية، يتمثل في اكتشاف البترول والغاز الطبيعي². وتحليل هذا العامل ذكر آلان سفاري أول خطاب رئيس الوزراء الفرنسي أمام الجمعية الوطنية المنتهية عن انتخابات خريف 1958 الذي ذكر فيه السامعين بشروات الجزائر وأهميتها ودورها والآمال المعلقة عليها "إذا كان ثمة حاجة لإقناع الذين لا يقتنعون إلا بالأرقام والوقائع ولا يصدقون إلا إذا رأوا بأعينهم، فعليهم بصحراء الجزائر ليذهبوا بأنفسهم ويروا ما فيها. كم من القوى ستؤم هذه الصحراء لتصارع رمالها المحرقة فلنقبل إشراك هذه القوى في عمل كبير واسع المدى في طاقته أن يفتح عهداً جديداً أمام الجزائر وأفريقيا بل أمام فرنسا وأوروبا"³. والشرط الوحيد ليكون الاستثمار إيجابياً هو بقاء الجزائر ضمن منطقة الفرنك، ولو أن نتائج استثمار هذه الآبار من الناحية المالية لن

1- Alain Savary, p. 67.

2-Ibidem, p. 70.

3-Ibidem, p. 71.

تكون كبيرة جداً كما أن سيطرة الشركات الأمريكية والأنقليزية لن ييسر استغلال النفط الجزائري وتسويقه وتوفير مراحجه المؤملة.

ورغم كل هذه العوائق فإن اكتشاف البترول كان له تأثير كبير على الرأي العام الفرنسية خاصة المدخر الفرنسي الذي وجد نفسه مقحماً في القضية الجزائرية. فالجزائر التي كانت سابقاً تمثل حملاً ثقيلاً أصبحت مصدر ثروة من صالح فرنسا المحافظة عليها بصفة نهائية. فاكتشاف البترول أصبح حجة بيد أصحاب الدعوة للاحتفاظ بالجزائر. وهكذا فقد ظهر سبب مادي لدى الرأي العام الفرنسي يدعم فكرة سياسة الإدماج وعدم التفريط في الجزائر.

الخاتمة:

تكمن أهمية هذا الكتاب حول الثورة الجزائرية في توفر معلومات دقيقة مستقاة من التقارير الرسمية والإحصائيات والأحداث الثابتة، وفي ممارسة السلطة من طرف صاحبه وانتمائه إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كانت تتحاذبه التناقضات حول قضية الجزائر. غير أن آلان سفاري حاول أن ينظر إلى الثورة الجزائرية من زاوية تيار بعض اليساريين المناصرين لها والمدافعين عن حق الشعب الجزائري في تقرير المصير. وربما تكلفه سنة 1956 بملفي المغرب الأقصى وتونس في حكومة في مولي GUY MOLLET قد كشف له النقاب على أن استقلال هذين البلدين كان مشروطاً بالتزامهما بالمحافظة على المصالح الفرنسية الاقتصادية والثقافية.

ولهذا، فإن استقلال الجزائر لن يؤثر سلباً على العلاقات الفرنسية الجزائرية إذا تعهدت الجزائر بإقامة علاقات متميزة مع فرنسا والتزمت بالمحافظة على مصالحها الاقتصادية وخاصة البترول. ولعل تصريح الرئيس الفرنسي شار لدوغول يوم 16 سبتمبر 1959 دعم رفض آلان سفاري للإدماج الذي تجاوزه الأحداث. واعتبر آلان سفاري أن استقلال الجزائر الداخلي في المرحلة الأولى هو حق مشروع للجزائريين الذين حاولوا الحصول عليه سلمياً لكن تصلب موقف المستوطنين والجيش الفرنسي وضعف الحكومات الفرنسية من جهة ثانية كان سبباً في اندلاع الثورة الجزائرية.